السيرة الذاتية ومقاومة التحيز
قراءة في كتاب "البحث عن فاطمة" لغادة كرمي[(1)]

د. ماجدة حسب النبي

تهدف هذه الورقة إلى قراءة كتاب **"البحث عن فاطمة: قصة فلسطينية"** في ضوء مقاومة التحيز الغربي لإسرائيل ضد العرب، والمسلمين خاصة.

يقدم هذا العمل المكتوب باللغة الإنجليزية والموجه في الأساس للقارئ الغربي قراءةً للتاريخ ربما تكون جديدة تماماً على قارئ حاصرته الدعاية الصهيونية بأعمال أدبية وفنية عديدة، و قد شكلت هذه الأعمال لدى القارئ على مر السنين تحيزات ترسخت في ظل غياب كتابة مضادة باللغة الإنجليزية من مبدعين عرب.

تحاول الكاتبة الطبيبة غادة كرمي أن تعالج هذه التحيزات، وأن تستبدلها بتحيزات بديلة من خلال سرد قصة حياتها، وسنحاول من خلال هذه الورقة اكتشاف الاستراتيجيات والآليات التي اعتمدت عليها كرمي في هذه المعركة، "ففي الآداب والفنون تدور معارك من نوع غير مسلح ليس فيها قاتل ولا قتيل"[(2)]، و لكن فيها جهات تتصادم فتتحاور كي تتفق على الوعي والقيم.

يبدأ كتاب "البحث عن فاطمة" بحكاية أحداث الاضطراب السياسي التي سادت في الفترة ما بين 1936 و 1939، و هي الفترة التي شهدت الهجرة المتزايدة لليهود إلى فلسطين، حيث الإضراب الشعبي العام، والاحتجاج ضد قوات الحماية البريطانية التي سهلت هجرة اليهود إلى البلاد، إلا أن غادة كرمي تفاجئنا بأن والدها لم يحك لها أو لأي من إخوتها عن تلك الاضطرابات التي راح ضحيتها ثلاثة آلاف فلسطيني في ثلاث سنوات على أيدي جنود الحماية البريطانية.

اختار الأب – الذي عمل بعد هجرته إلى لندن في هيئة الإذاعة البريطانية– أن يكتم ما بداخله من حكايات عن العنف الذي قابلت به بريطانيا الثوار الفلسطينيين المحتجين على تسليم أرضهم ليهود العالم، ربما كان يعتقد أنه لو قام بالحكي لما استطاع أبناؤه – و لما استطاع هو نفسه – أن يقيم علاقات ود واحترام مع الإنجليز و هو يعمل معهم ويعيش في بلادهم.

من ناحية أخرى يكشف النص أن الأب وطني غيور على فلسطين، و لكنه تربى على الثقافة الإنجليزية وأحبها وتشبع بها لدرجة أنه يبدو في بعض المشاهد شديد الشبه بمستر (بينيت) في رواية (جين أوستن)[(3)] "كبرياء وهوى"؛ حيث يجسد الأب الإنجليزي المتحفظ والمتعالي في آن واحد.

يوثر الأب الصمت ويغوص في قراءته لعشرات الكتب "الإنجليزية" التي تشفع له – أو على الأقل هذا ما تصورته الابنة الكبرى سهام – عندما يدخل الجنود الإنجليز يفتشون المنزل بحثاً عن أسلحة مخبأة. تضغط الابنة على مخارج الحروف وهي تقول مشيرة إلى كتب والدها "إنجليش"!! ويبدو أن الصغيرة كانت فطنة فقد رد الجندي بأن "تحيزَ" لوالدها الذي يقرأ "إنجليش" ثم ربت على رأسها وغادر المنزل[(4)]، ويبدو أن غادة كرمي ليست أقل فطنة من أختها الكبرى فهي تكتب هذه السيرة الذاتية المتحيزة للوطن بالإنجليزية وأغلب الظن أنها نجحت كما نجحت أختها من قبل في أن تكسب تحيز الإنجليزي لقضيتها وأن تجعله يستمع لرواياتها للتاريخ.

فهذه السيرة هي سيرة للذات وهي في الوقت نفسه سيرة للوطن الذي سلمه الإنجليز في يوم من الأيام هدية لليهود القادمين من كل صوب وحدب. وتحكي غادة ذلك دون مواربة، تحكي عن عنف الإنجليز، وعن خيانتهم، ولكنها في كل لحظة تحيل القارئ إلى الكلمات الإنجليزية العذبة التي تراصت في شمم

على صفحات كتابها القوي – كما تراصت كتب والدها على الأرفف – و كأنها تقول كلمة السر التي قالتها سهام للجندي من قبل "إنجليش"!

ولم تكن اللغة، باعتبارها وعاءً لتلك السيرة الذاتية، هي الوسيلة الوحيدة لكرمي لتقاوم التحيز، ولتشارك في حوار حقيقي للحضارات، كما لم تكن هي الجسر الوحيد الذي ربط بين الذات الفلسطينية والآخر البريطاني أو الأمريكي، أو المتحدث بالإنجليزية أيًا كان وطنه، وإنما كشفت كرمي عن جسور أخرى عديدة من شأنها أن تربط بين الذات والآخر، و تؤهل كلا من الطرفين لفهم الطرف الآخر، أو على الأقل رؤيته.

ربما كانت أهم تلك الجسور هي المواقف الحياتية المشتركة التي يمر بها الإنسان على اختلاف لونه، ولغته، وثقافته التي تجعله يرى نفسه في الآخر (الذي يتحيز ضده) و كأنه يرى نفسه في المرآة.

تسلط كرمي الضوء على تلك المواقف في ذكاء شديد يساعدها في ذلك اختيارها لجنس أدبي قادر على مواجهة التحيز؛ إذ أن السيرة الذاتية تخاطب كل ما هو متقارب و متشابه في حياة كل من الكاتب والقارئ، وتبدأ من أرضية مشتركة بينهما (أسرة، و طفولة، ومدرسة، و مراهقة ... إلخ). وهي تختلف عن الرواية في أنها تكتسب مصداقية لدى المتلقي لارتباطها بالواقع، كما تشتد جاذبيتها كلما زادت خصوصيتها وقدرتها على كشف مناطق مجهولة في حياة كاتبها[5]. ويتحقق الإيهام بواقعية ما يقرأه القارئ بموجب ما يسميه (فيليب لوجان) "العقد" أو "الميثاق السير ذاتي"[6]،

و هو عقد يكتسب صرامته وفاعليته من أنه غير مكتوب، ومتفق عليه أشد أنواع الاتفاق[7]، و يقوم على "أن الكاتب سيحكي للقارئ ما حدث في الواقع دون إدخال أي عنصر من عناصر الإيهام والتخييل في العملية السردية، و أن على القارئ أن يصدق كل مايرويه الكاتب، حتى تتخلق السيرة الذاتية وتستقيم دلالتها أمامه على الصفحة"[8]، لعل هذه الصفات هي التي مكنت السيرة الذاتية من مقاومة التحيز في لحظات تاريخية فاصلة في أماكن مختلفة من العالم؛ فقد ساهمت السيرة الذاتية لـ(فريدريك دوجلاس)، و(هارييت جاكوبز)، و غيرهما من العبيد الهاربين، في تجاوز التحيز ضد السود في الولايات المتحدة الأمريكية، وتغيير الاتجاه لصالح إلغاء نظام الرقيق مما فجر الحرب الأهلية الأمريكية (1861-1865)، وأدى في النهاية إلى تحرر العبيد، و في القرن العشرين زاد الوعي بمشاكل المرأة، و العمال، والأقليات، وسكان أمريكا الأصليين، بفضل تصديق القراء للسير الذاتية التي أبدعها كتاب مثل (آجنس سميث)، و (إما جولدن)، و (جاكوب ريس)، و (نيت شو)، و(ريتشارد رايت)، و غيرهم[9]، كما قامت السيرة الذاتية مؤخراً بدور فعال في التعبير عن الهويات القومية التي طالما كان ينظر إليها باعتبارها أقليات مهمشة، مما جعل (جوليا سويندلز) تسمي هذا النوع الأدبي "نص المقهورين والمقتلعين من جذورهم الثقافية"[10]، و تركز (سويندلز) على أهمية السيرة الذاتية في التعبير عن تجارب بعينها: "تلك التي تعرض أصحابها لقهر منظوم، أو تلك التي لم يسجلها أصحابها قط، أو التي كثيراً ما كان يتم تصويرها في تحيز صارخ، أو من خلال التنميط (stereotypes)"[11].

ينطبق وصف (سويندلز) الأخير الخاص بالتنميط على تصوير العرب والمسلمين في الوعي الغربي، و قد رأى إدوارد سعيد في الإرث الاستشراقي الغربي مصدراً أساسياً من مصادر تشكيل وعي الغرب بالشرق، ذلك الإرث الذي قام "بتنميط" الشرق ونسج مخزون من الإثارة والغرائب المؤسسة للصور الغربية عن الشرق في الأدب والفن والإعلام[12]، "فالعديد من الناس في دولِ الغرب" - كما يقول (جون اسبوسيتو) مدير مركز التفاهم الإسلامي / المسيحي بجامعة جورج تاون بالولايات المتحدة

الأمريكية – "لديهم مسلمة بديهية، وهي أن العرب ما هُم إلا بدو، أو أثرياء نفط يسكنون الصحراء، أو الحرملك. وأن العربي انفعاليٌ، مقاتلٌ، ولا يُخْضع تصرفاته للعقل .. وأن الإسلام ما هو إلا مرادف للحرب المقدسة والكراهية والتعصب، والعنف، وعدم التسامح، واضطهاد النساء"[13]، ويضع عبد الوهاب المسيري نظرة الغرب للعرب والإسلام في إطار الرؤية المعرفية الغربية ككل، تلك الرؤية التي تميل – بسبب طبيعتها المادية– إلى الاختزال والتنميط مما يجعلها لا تستوعب المقدسات والخصوصيات الثقافية الأخرى[14].

وبصرف النظر عن الخلفيات التي تشكلت خلالها التحيزات الغربية ضد الشرق والإسلام في وعي القارئ الأوربي، فإن على من يخاطب هذا القارئ فيما يتعلق بتاريخ العرب وثقافتهم أن يتعامل مع هذه التحيزات ويقاومها.

و"في البحث عن فاطمة"، كان اختيار السيرة الذاتية، واللغة الإنجليزية خطوتين أوليتين على طريق مقاومة التحيز، ومساعدة القارئ على تبني رؤية عربية للتاريخ بصرف النظر عن اختلافها عن رؤية المتلقي لحظة شروعه في القراءة، إلا أن النص لم يتوقف عند ما توفره هاتان الخطوتان من مسافات في الرحلة إلى عقل ووجدان قارئ متحيز، وإنما تضمن في داخله آليات أخرى لمقاومة التحيز نستطيع إجمالها كما يلي:

- أولاً: تفكيك المصطلحات و إعادة تركيبها بحيث تحمل تحيزات الكاتبة و تعبر عنها.
- ثانياً: فض الاشتباك بين الذات والآخر إلى درجة تصل في بعض أجزاء النص إلى التفكيك التام لتلك الثنائية، ويتحقق ذلك من خلال ميكانيزمات أهمها نقد الذات، و تسجيل تحيزات الآخر للذات، وأخيراً تبني النموذج المعرفي للآخر بحيث تتوحد الذات مع الآخر (الكاتبة مع المتلقي) ليصبحا كياناً واحداً في رحلة بحث عن الحقيقة.

و فيما يلي توضيح لهذه الآليات التي استخدمتها الكاتبة إما بشكل تلقائي، أو ربما عن قصد، لمقاومة التحيز:

أولاً: تفكيك المصطلحات:

من الضروري أن ندرك في البداية طبيعة المصطلح في العلوم الإنسانية والاجتماعية حيث التحيز مكون أساسي[15]؛ فالمصطلحات "ليست بريئة أو محايدة، بل هي تعبر عن رؤى متكاملة ونماذج إدراكية و معرفية"[16].

ومن المصطلحات التي عملت كرمي على تفكيكها في هذا العمل مصطلح الخروج Exodus. وهي إذ تفعل ذلك تقوم في الوقت نفسه بكتابة عكسية "Writing back"، أو ما يمكن تسميته بالمعارضة الأدبية لأعمال أدبية أخرى متحيزة للصهيونية و لإسرائيل[17]، في عام 1959 صدرت رواية الخروج الكبير Exodus للكاتب اليهودي الأمريكي (ليون يوري) التي تحولت فيما بعد إلى أحد ملاحم هوليود السينيمائية[18].

تحكي الرواية التي ترجمت إلى خمسين لغة قصة السفينة التي حملت المئات من يهود أوربا "المهاجرين" إلى فلسطين "هربًا من الاضطهاد"، كما تبرز موقف السلطات البريطانية التي لم تسمح لها بالدخول، و قد ساهمت الرواية والفيلم في ترويج صورتين نمطيتين: صورة اليهودي الضحية، و المطرود من أوربا، والمحروم من الدخول إلى "أرض الميعاد"، وصورة الإنجليزي القاسي، والغليظ القلب، لكن كرمي "في البحث عن فاطمة" تستخدم مصطلح الخروج exodus في مقابلة و موازنة

دالة، وفي محاولة لمقاومة التحيز في المصطلح، و تقويض مركزية الخطاب الصهيوني؛ فهي تتحدث عن The Palestinian exodus "خروج" الفلسطينيين[19]،
وعن الخروج في هلع[20] "The panic exodus" من بلدتها "قطمون" هربًا من إرهاب اليهود.
ومصطلح الخروج exodus يشير في سياقه الأصلي إلى خروج اليهود من مصر "أرض العبودية" في القرن الثالث عشر ق.م، وهو يرمز- حسب الرؤية اليهودية القديمة والصهيونية الحديثة إلى التدخل الإلهي في التاريخ لصالح "الشعب المختار"[21]، وباستخدام المصطلح للدلالة على خروج الفلسطينيين من ديارهم هربًا من الإرهاب الصهيوني تنزع كرمي القداسة عن المصطلح ومن ثم عن مضمونه الذي تستثمره الصهيونية للإشارة إلى خروج اليهود من أوربا في القرن العشرين- كما في الرواية والفيلم المشار إليهما- ذلك الخروج الثاني الذي بمقتضاه تستمر معاناة اليهود وعذاباتهم حتى "نهاية التاريخ"[22].
وقد ضاق كتاب آخرون بمركزية الخطاب الصهيوني و هيمنته فنجد الكاتبة الأفرو أمريكية (توني موريسون) تصدر روايتها "محبوبة" بكلمة استهلالية تقول: "ستة ملايين وزيادة"[23] في إشارة إلى أن ضحايا العبودية في الولايات المتحدة يفوقون في العدد ضحايا "الهولوكوست".
وكما تسلط (موريسون) الضوء على معاناة الأفارقة وترفعها فوق معاناة اليهود الذين تحيز لهم المجتمع الأمريكي بينما تنكر للسود، تسلط كرمي الضوء على معاناة الفلسطينيين الذين تنكر لهم الغرب المتحيز لإسرائيل، وتجعل خروجهم من أرضهم "exodus" أي خروجًا مؤلمًا لا يختلف في قسوته وبشاعته عن هجرة اليهود الأوربيين فراراً من اضطهاد أوربا، وترسم كرمي في سيرتها الذاتية صورة صارخة لهذا الخروج الذي تناساه العالم في خضم الدعاية الصهيونية الأكثر نفيراً. فترصد حياة أسرتها وحياة من حولها من الجيران والأهل قبل أن يفروا من القرى والمدن الفلسطينية لكي ينجوا بحياتهم من الموت على أيدي العصابات اليهودية المسلحة، تصف كرمي مشاعر الرعب والهلع التي عاشتها الأسرة ليلة انفجار فندق سميراميس الذي يقع خلف منزلهم مباشرة في الرابع من يناير 1948؛ أي قبل عيد الميلاد "الكريسماس" بثلاثة أيام[24]:
"استيقظت في وقت ما من الليل، من نوم عميق، لأجد نفسي وسط كابوس من الرعد و البرق. و للحظات لم أستطع التفريق بين النوم و اليقظة، ورأيت غرفة نومي وقد امتلأت بالأغراب الذين أدركت فيما بعد أنهم أبي وأمي وفاطمة وإخوتي. كانت الضوضاء رهيبة ... زجاج يتهشم، وطلقات نارية وانفجارات بدت و كأنها تأتي من حديقة المنزل الخلفية ... كان ركس ينبح في فزع بينما جذبتني أمي من السرير وأجلستني أنا وزياد ملتصقين بحائط الغرفة. كانت السماء برتقالية اللون، و كانت تتوهج وترقص. "هل الوقت فجراً؟؟" "أهذه هي الشمس؟؟" أخذت أسأل ولا أحد يجيب، بينما شعرت بجسد أمي يهتز بقوة داخل رداء النوم"[25].
استمرت كرمي تصف تفاصيل تلك الليلة وما تلاها من فزع في قطمون، ووسط البكاء والدمار ورائحة الكيروسين تتكشف للقارئ الحقيقة التاريخية التي تحكيها كرمي، وهي أن الهاجاناه هم الذين قاموا بتفجير الفندق اعتقاداً منهم أنه كان يستخدم كقاعدة لوحدة مسلحة تابعة للجنة العربية العليا لتحرير فلسطين، و تنفي كرمي ذلك قائلة:"لم يكن هذا صحيحًا، فقط كان الصحفيين العرب و النشطين من التيارات السياسية المختلفة قد اعتادوا على الاجتماع في الفندق"[26]، تحكي كرمي أيضًا كيف أن الهاجاناه قد استنكرت الحادث وأعربت عن أسفها، كما أعلنت أنه قد نفذ دون علمها على أيدي جماعة منشقة عنها.

ويعرف عبد الوهاب المسيري الهاجاناه بأنها: "منظمة عسكرية صهيونية استيطانية أسست في القدس عام 1921. . . انشق عنها جناح متطرف وكون تنظيماً مستقلاً سمي "هاجاناه ب"، و لكنه عاد واتحد مع المنظمة الأم عام 1936، و لكن بعض العناصر رفضت العودة وكونوا مع حركة بيتار تنظيم الأرجون المعروف بتطرفه"[27]، ويضيف المسيري أنه: "على الرغم من أن الهاجاناه كانت تصدر بيانات استنكارية عقب عمليات الأرجون الإرهابية, فإن تصريحات مناحم بيجين قد أفادت بكل وضوح فيما بعد بوجود تنسيق عسكري بين المنظمتين وفقًا لمنطق تقسيم الأدوار"[28].

و هكذا يؤيد التاريخ صدق الشعور الشعبي العام الذي لم ينخدع بما قالته الهاجاناه، فحسب رواية غادة كرمي، كان الناس في كل مكان يقولون "كذابون ولاد كلاب"[29].

تأتي هذه الروايات النابعة من الذاكرة الجمعية لتعارض ما يرويه الإسرائيليون والغرب المتحيز لإسرائيل من أن "المهاجرين الأوائل" أو "الرواد" كما يشار إليهم في سياق شديد التحيز– قد تعرضوا للإرهاب على أيدي العرب المسلحين وأنهم دافعوا عن أنفسهم في شجاعة وصمود، و العكس هو الصحيح فقد حاول الفلسطينيون الدفاع عن أنفسهم ضد الإرهاب الصهيوني الإحلالي ولكن:

"لم يكن سراً أن السلاح الذي كنا نملكه كان قديمًا من حيث الطراز، و قليلاً من حيث الكم بالمقارنة بالسلاح الذي استخدمه اليهود. فلم يكن هناك مصانع سلاح في فلسطين، و لم يكن هناك وسيلة لتصنيع أي شيء باستثناء القنابل البسيطة، أما الهاجاناه فكان لديهم العديد من مصانع الأسلحة التي تنتج الرصاصات والقنابل ومدافع الهاون و البنادق"[30].

وهكذا، من خلال هذا النص المكتوب بالإنجليزية، تتاح للقارئ الغربي المتحيز لإسرائيل أن يدرك أن "الرواد" في رواية مثل "الخروج" لـ(ليون يوري) ليسوا ضحايا وإنما معتدين وإرهابيين، فيعيد النظر في التاريخ ويشعر بصدمة التحيز، "فالمجتمع العنصري" كما تقول فريال غزول – في تحليلها لنص "أنا عربي مشبوه" للطاهر بن جلون– "يقوم بتطبيع التحيز وتكييف المتلقي لاستقباله بينما يقوم المبدع بعملية معاكسة فهو يقدمه ناتئًا وبارزاً لا يمكن إغفاله"[31].

"الخروج" في "البحث عن فاطمة" إذن هو خروج الفلسطينيين من منازلهم في هلع له ما يبرره من أحداث، جمعتها كرمي من أفراد أسرتها الذين استحقوا ما قدمته لهم من شكر في بداية العمل. فقد تضافرت ذكريات والدها، وأختها، وأخيها، و أبناء عمها مع ذكريات الطفلة ذات التسع سنوات كي يصل للقارئ – بغض النظر عن تحيزاته– كل هذا الألم و الفزع الذي أضفى على مصطلح الخروج معنىً جديداً وتاريخًا واقعًا و حياة.

فها هو زياد كرمي الصغير يمشي مع كلبه ركس فيدخل دون أن يدري أن الشارع كل سكانه من اليهود، وإذا برجل بدا أجنبياً يصوب بندقيته من أحد الشرفات ويصيح بعربية ركيكة: "اذهب بعيداً. . .أخرج"[32]، وهاهي قوات الهاجاناه تتجول في الحي في طالبية بمكبرات الصوت وتنادي الناس أن فروا وإلا فجرنا منازلكم[33]، و تحكي العمة سعاد عن أسرة كاملة جاءت إلى منزلها مستجيرة، حكى أفرادها أن الجنود اليهود قد دخلوا إلى قريتهم القريبة من حيفا و أطلقوا النار على كل من فيها، و بما أن سكان القرية لم يكن معهم سلاح فقد فروا جميعًا هاربين، و لم يعرف أحد عدد القتلى[34]، ويحكي العم أبو سلمى أن أهل حيفا صمدوا في الدفاع عنها إلا أن كثيرين اضطروا للفرار يقدر عددهم بعشرين ألف أو أكثر، كما يحكي كيف أن التجار أغلقوا محالهم وكانوا يبيعونها لليهود بأثمان زهيدة ثم يفرون بحياتهم من القناصة اليهود والتفجيرات المتتالية التي أرهبتهم وأفزعتهم[35]، وتحكي كرمي نفسها كيف أن القناصة اليهود كانوا يحتلون المنازل التي فر ساكنوها ويصوبون نيران

بنادقهم على المارة الفلسطينيين، و تصف بالتفصيل من منظور الطفلة مصرع أحد الباعة الجائلين من البدو أمام عينيها بينما كانت تلعب في شرفة المنزل[36].
لكن غادة كرمي لا تكتف في تعاملها مع مصطلح الـ exodus "الخروج" بالمقارنة و المقابلة، وإنما تتعدى ذلك إلى ضرب الدلالة الصهيونية للمصطلح في مواجهة صريحة؛ فبعد أن تقدم للمتلقي كل هذه الحكايات من زوايا رؤية متعددة، و بعد أن يدرك هول "الخروج" الفلسطيني، وتترسخ لديه دلالة جديدة لمصطلح الـ exodus، تعود كرمي للدلالة الصهيونية للمصطلح و تحكي عن حادث السفينة Exodus التي لم تسمح لها القوات البريطانية بالدخول واستخدمها اليهود للتدليل على معاناتهم و شتاتهم. فتقدم لقارئها الرؤية العربية لهذه الحادثة، و كأن كرمي تدعو القارئ صاحب الوعي الوليد بالواقع التاريخي أن يراجع حادثة السفينة وغيرها من أحداث ويحاول قراءتها من منظور جديد، و كأنها تقول: الآن فقط عزيزي القارئ أصبح في وسعك – إن أردت– أن تتقبل رؤيتنا نحن لهذه الحادثة: "قال الفلسطينيون: لم نكن لنحرم لاجئين عاديين من المأوى، ولكن المشكلة أن هؤلاء اللاجئين لم يأتوا إلى هنا طلبًا للأمان، و إنما جاءوا ليستولوا على الأرض"[37].
وهكذا تفكك كرمي في هذا الاقتباس على لسان رجل الشارع الفلسطيني مصطلحاً آخر هو مصطلح refugee "لاجئ"، و ذلك بتحليل المفهوم الكامن وراءه، فاللاجئ – كما يستطيع الإنسان البسيط أن يدرك– هو الباحث عن الأمان وهو ما لا يتفق مع سياق الحركة الصهيونية الاستعمارية الإحلالية.
تحدد موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية عدد اليهود في فلسطين عام 1948 بـ 649633 و يدعونا مؤلفها الدكتور عبد الوهاب المسيري إلى القيام بعملية حسابية بسيطة فنجمع هذا العدد في عائلات تتألف الواحدة منها من خمسة أشخاص لنحصل على رقم 129927عائلة، ثم ينبهنا إلى أن الأملاك القومية اليهودية المشتراة حتى عام 1948 كانت لا تتسع إلا إلى 32521 عائلة يهودية؛ أي أن هناك 97406 من العائلات تفيض عن القدرة الاستيعابية التي يفترض وجودها في الأملاك الصهيونية وفقاً للحسابات التي أجراها الصهاينة بأنفسهم. ومن هنا نستنتج أن الغرض الأساسي أو النتيجة الحتمية "للهجرة" اليهودية هي طرد الشعب الفلسطيني, أي أنها "هجرة إحلالية" بالضرورة، بل أنه لا يمكن رؤية هذه "الهجرة" إلا على أنها الترجمة الديموجرافية للإرهاب الصهيوني[38].
وكما تفكك كرمي مصطلحي الخروج واللجوء، فإنها تعمل على تفكيك مصطلح "إرهابي" أيضًا. وربما عانت كرمي كما يعاني الآلاف من العرب و المسلمين في كل مكان من التحيز في اقتران هذا المصطلح بالعرب، ونستطيع قراءة الجزء الأول من هذه السيرة الذاتية بوصفه محاولة ناجحة للفصل بين المصطلح و مدلوله المتحيز ضد العرب و المسلمين؛ حيث تحكي كرمي في هذا الجزء بالتفصيل عن "الإرهابيين اليهود" كما أسماهم البريطانيون، وكيف أن الجماعات اليهودية – وأهمها الأرجون و الليهي المعروفة باسم العصابة القوية The Stern Gang– قد مارست الإرهاب ضد كل من الإنجليز والعرب منذ عام 1946.
ولا تكتفي كرمي بالإشارة إلى المفارقة في تحول المصطلح من وصف المغتصب المحتل للأرض، إلى وصف صاحب الأرض المدافع عن الحق، وإنما تتجاوز الإشارة إلى التصريح: "يا لها من مفارقة أن المصطلح "إرهابي" terrorist والذي أصبح الآن مرادفاً مباشراً للعرب وخصوصاً المسلمين، قد رأى النور كاسم لأعضاء الجماعات اليهودية في فلسطين"[39].
وبمجرد أن تقوم كرمي بفك أسر هذا المصطلح داخل النص، تبدأ في استخدامه بمدلوله الأصلي فتقول: "ومنذ بداية العام (1947) كان الإرهابيون يهاجمون عربات الجيش الإنجليزي بالدبابات

والقنابل"[40]، وتحكي عن ثورة السلطات البريطانية و قيامها بعمليات واسعة النطاق بحثاً عن الإرهابيين"[41]، يلاحظ القارئ في هذين الاقتباسين – كما في مواضع كثيرة من هذا الجزء – أن كرمي قد حذفت الموصوف واكتفت بالصفة في محاولة لتطبيع وتأكيد الدلالة الجديدة/القديمة للمصطلح.

وتحاول كرمي ترسيخ المصطلح بهذا المدلول من خلال تكراره أكثر من مرة في هذا الجزء من النص في سياق أحداث تاريخية بعينها: "في شهر مارس، احتجز الإرهابيون اليهود قطاراً حربياً يحمل مرتبات الجنود وقاموا بنهب ثلاثين ألف جنيه إسترليني"[42]، كما تحكي بالتفصيل عن حادث تفجير فندق كنج ديفيد الذي راح ضحيته مائة شخص معظمهم من العرب والإنجليز، وعدد قليل من اليهود.

يتلقى القارئ الحادث أولاً من منظور الأسرة فيشعر بهلع الأم خوفاً على الأب الذي يعمل بالقرب من الفندق، ثم يستمع إلى بكائها على الشابة الجميلة هيلدا عزام إبنة إحدى الأسر المسيحية الصديقة التي كانت تعمل سكرتيرة في الفندق، واختفت تحت الأنقاض، توسع كرمي زاوية الرؤية بعد ذلك لتجعلنا نرى الحادث من زاوية الجار مستر جوزيه الذي يصرخ قائلاً:"شيطانيون . . .هؤلاء الناس ليسوا بشر. إنهم شياطين من جهنم!!"[43]، وتظهر في المشهد الحزين مسز تومبسون اليونانية التي قتل زوجها في التفجير والتي طالما جاءت لبيت كرمي وهي تبكي أو تهذي.

وهكذا يستشعر القارئ بشاعة الإرهاب الصهيوني، وينجح النص في تفكيك المصطلح وإعادة تركيبه مما يسهم في خلق تحيزات مضادة تحاول الكاتبة إحلالها في أسلوب شبه وثائقي يتلقى القارئ من خلاله الأحداث من خلال أصوات متعددة لشهود عيان من مختلف الاتجاهات والجنسيات.

- فض الاشتباك بين الذات والآخر:

تقرأ هذه الورقة التوحد مع الآخر في "البحث عن فاطمة" باعتباره آلية أخرى من آليات مقاومة التحيز التي ينفتح من خلالها النص على القارئ الغربي.

إذا كانت الثقافة العربية الحديثة ظلت محكومة بمفهوم الأنا في مقابل الآخر الغربي، فإن هذه الثنائية بدأت تصاب بالتصدع، وهذا ما يؤكده صبري حافظ لما يذهب إلى أن الثقافة العربية بدأت تتنصل من تصور كل من الذات والآخر باعتبارهما كيانين ثابتين يتصارعان فيما بينهما، و قد يتفاعلان مع بعضها بعض، إلى تصور آخر صارت فيه الذات جزءاً من عملية حوارية مستمرة مع الآخر، و هو حوار بين صيرورتين متحولتين و مفتوحتين على مجموعة لا متناهية من الاحتمالات[44].

يبدأ التوحد مع الآخر في النص بانجذاب غادة الطفلة الصغيرة للجندي الإنجليزي، حيث تغافل الصغيرة أهلها لتذهب هي وصديقتها رندة لتحية الجندي الذي تصفه قائلة: "كان شعره ناعمًا و عيناه زرقاوتين تلمعان حين يبتسم"[45].

وربما يفسر البعض انجذاب الطفلة للجندي في ضوء التحيز للغازي، استناداً إلى علم النفس الذي يقدم تفسيراً مقبولاً لهذا التحيز؛ يقول الدكتور قدري حفني في كتابه "تجسيد الوهم": "إذا ما تعرض الفرد لعدوان لا قبل له بمواجهته وأصبحت الهزيمة خطراً يهدد اتزانه النفسي، فإنه كثيراً ما يلجأ إلى اتخاذ مصادر العدوان نماذج يقتدي بها، و مثل عليا يسير على هديها حفاظاً على توازنه النفسي"[46]، وقد يصلح هذا التفسير لفهم التحيز للون البشرة الفاتح الذي تقول كرمي أنه كان منتشراً في مجتمع البنات والسيدات الفلسطينيات، لدرجة أن أمها كانت تجعل أختها سهام تشرب الكثير من اللبن على أمل أن يتحول لون بشرتها الأسمر إلى اللون الفاتح[47]، إلا أن "التوحد مع المعتدي" لا يصلح في رأيي

لتفسير العلاقة بين الصغيرتين والجندي، بل أميل إلى اعتبار تلك العلاقة دليلاً على تحيز النص للتواصل الإنساني المطلق و إمكانية تحققه، خاصة وأن الطفلتين لم تنظرا للجندي الإنجليزي بوصفه معتدياً، وأن نظرة غالبية الفلسطينيين للإنجليز في ذلك الوقت كانت إيجابية؛ إذ كان الجنود الإنجليز يمثلون خط الدفاع الوحيد ضد الإستيطان الصهيوني.

ويؤكد هذا التفسير أن الجندي هو الآخر قد تعلق بالطفلتين و بالبقال "أبو سلمى" الذي عبر عن أسفه لفراق الجنود الإنجليز قائلاً:"نحن نحبكم. لماذا تغادرون؟"، فرد عليه الجندي قائلاً: "ونحن أيضًا نحبك يا مستر أبو. وصدقني لو كان الأمر بيدنا لما حدث ما يحدث في هذا البلد، إنه أمر مؤسف، و لكن لا أحد يستمع لما نقول"[48].

وقد صورت كرمي العلاقة بين الجندي والفتاتين في شاعرية شديدة العذوبة: "يبعد الجندي فوهة بندقيته عن الفتاتين ويحييهما قائلاً:هاللو"[49]، يبادلهما الجندي المشاعر الإنسانية البريئة ويبتسم لهما و يشتري لهما الحلوى حين يلتقي بهما في دكان أبي سمير، وأخيراً يودعهما في تأثر شديد قبل عودته إلى بلده.

وهكذا يمكن تفسير حلم غادة الطفلة بدمية شقراء "تلمع عيناها الخضراوتان كعيني الجندي الإنجليزي!"[50] باعتباره محاولةً للإمساك بلحظات من الحب الصادق الذي يجمع بين البشر على اختلاف ألوانهم وأوطانهم، وليس دليلاً على "التوحد مع المعتدي".

يعمل هذا المشهد وغيره من المشاهد التي يمتلئ بها النص على تفكيك ثنائية الذات والآخر بحيث يلتقي الاثنان كما أسلفت في رحلة البحث عن الحقيقة، وعلى الأرجح أن النص قد استفاد من هذه المشاهد في مقاومة التحيز الغربي لإسرائيل بوجه عام، و التحيز الإنجليزي لها بوجه خاص. وتبدو غادة كرمي وكأنها تستثمر أقوالاً من الذاكرة لبريطانيين مستنكرين لسياسة اليهود الاستيطانية وأساليبهم الدموية، وذلك عملاً بمبدأ "شهد شاهد من أهله"، كل ذلك كي تصل إلى قلب القارئ الإنجليزي و عقله. فهاهي تحكي مثلاً أن مستر كليتون أحد أصدقاء والدها يعترف له بتغير مشاعره نحو الصهاينة من التعاطف في بداية مجيئهم إلى فلسطين إلى العداء الشديد[51]، و كيف أن مستر هنري دودز – الذي تعرف عليه الوالد في زيارة لإنجلترا- قد أرسل بعد تفجير اليهود لفندق كنج ديفيد خطابًا يستنكر فيه الحادث، ويحكي عن حالة الغضب الشعبي العارم التي عمت انجلترا إثر وقوعه، يكتب مستر دودز في خطاب أرسله إلى والد غادة كرمي: "لقد هز الحادث انجلترا بأسرها ... صدقني أنتم لستم بمفردكم، فالناس هنا مشمئزون من العنف في فلسطين... والصحف قد امتلأت بأخباره ... لدرجة أن بعض الكتاب قد شبهوا عصابات اليهود بالنازيين، والبعض الآخر كان كريماً والتمس العذر لليهود قائلاً أن ما رأوه في الحرب من أهوال قد أثر على عقولهم. لا أحد يعرف، و لكني على أية حال أتمنى أن تكون أنت وأسرتك في أحسن حال"[52].

وهكذا تفرد كرمي مساحات واسعة لشهود عيان إنجليز في محاولة منها لإقامة جسور بين النص وبين القارئ الإنجليزي، وتأتي زيارة مسز كليتون لمنزل كرمي لتدعيم تلك الجسور. تضطر مسز كليتون إلى الرحيل بعد أن زادت هجمات الإرهابيين من العصابات اليهودية على الإنجليز، وتبكي بحرقة وهي تودع فلسطين وتقول أنها لن تنسى أبداً العطف والكرم اللذان عاملها بهما الفلسطينيون، و لن تنسى أصدقاءها في هذا البلد. يترجم الأب هذا الكلام لأم غادة التي لم تكن تعرف الإنجليزية– وتختتم مسز تومبسون كلامها قائلة: "إن ما يفعله اليهود بشع! بشع!"[53].

وهكذا ينحت النص في ذهن القارئ الغربي تحيزات جديدة: تحيز إلى لإنسان العربي، و تحيز ضد الإرهاب الصهيوني، وتتجاوز أدوات نحت هذه التحيزات صفحات التاريخ التي سجلت التفجيرات و حوادث الإغتيال إلى دكاكين البقالة - حيث يتواصل الأطفال الفلسطينون مع الجنود الإنجليز– وغرف الإستقبال حيث يحتفي الفلسطيني بضيفه الإنجليزي وحيث يبكي الضيف لفراق فلسطين ويثور على خيانة اليهود و قسوتهم.

إلا أن النص لم يقع في سقطة تملق الآخر الإنجليزي على حساب الحقيقة التاريخية، فكشف عن طريق تعدد الأصوات عن جوانب أخرى في العلاقة بين أصحاب المنزل (الفلسطينيين) و (الضيوف) الإنجليز، فهم ضيوف وأصدقاء أحيانًا، و هم في أحيان أخرى إرهابيون و خونة أو على أحسن تقدير "حمقى".

يعلق أحد جيران كرمي من العرب قائلاً: "ما أحمق هؤلاء الإنجليز... نجحوا في إرهابنا في وقت الإضراب الكبير بينما لا يستطيعون السيطرة على حفنة من اليهود!"[54]. و تحكي كرمي أن كثيراً من العرب لم يتعاطفوا مع أي من طرفي النزاع اليهود والإنجليز، وإنما رأوا أن الأمر لا يتعدى:"مغتصب يحارب مغتصبًا آخر"[55]. و بمرور الأيام وتحديداً في نوفمبر1947، أي بصدور قرار تقسيم فلسطين الذي يقضي بإعطاء اليهود 55% من أرض فلسطين ليقيموا عليها دولتهم، تظهر في النص صورة الإنجليزي الخائن، و ترصد غادة كرمي مشاعر والدها –المتحيز للثقافة الإنجليزية – و أحاسيس الصدمة والألم والحرج التي انتابته وهو يدافع عن نفسه ضد تلميحات العم أبي سلمى التي تجاوزت التنديد بالإنجليز إلى كل من يواليهم أو يعمل معهم: "كيف كان لي أن أعرف ما سيفعله بنا هؤلاء الإنجليز؟ لم يكن أحد يتوقع أنهم سوف يقدمون نصف بلادنا هدية للمهاجرين!!"[56]، أما الأم فتظل على ولائها للآخر الإنجليزي الذي اعتادت على احترامه والإعجاب به من خلال تعاملها مع أصدقاء زوجها، ولهذا، عندما يسب أبو سلمى الإنجليز ترد قائلة: "لا زلت أقول أن الإنجليز لا يقصدون تسليم أرضنا لليهود، من المؤكد أن لديهم خططًا أخرى ولكنهم لا يخبروننا بكل شيء"[57].

وفي الجزء الثاني من الكتاب يتخذ التوحد مع الآخر (الإنجليزي-المسيحي-واليهودي) أشكالاً متعددة و يصل إلى ذروته بزواج الراوية من الشاب الإنجليزي، وإحساسها القوي بفقدها التام لهويتها العربية و الإسلامية.

تقارن كرمي بين موقفها وموقف والدتها من لندن، فبينما تحاول الأم جاهدة أن تبني المنزل الفلسطيني – الذي تركته وراءها– داخل منزل لندن البارد، لا تقارن الطفلة بين المنزلين بل تقوم منذ أن تطأ قدميها المنزل في "جولدرز جرين" "بحبس فلسطين الطفولة في مكان ما داخل الذاكرة خاص جداً، و كأن عصىً سحرية قد جعلتها تتجمد لتبقى على حالها منذ يوم الرحيل"[58].

يتبين القارئ منذ هذه اللحظة انفتاح الطفلة على الحياة في لندن ومقدرتها الخارقة – التي يمكن تفسيرها في ضوء صغر سنها- على تجميد الذكريات التي هي قوام هويتها العربية الإسلامية لتبقى محفوظة على حالها منذ يوم الخروج من الوطن. وإذ يعكس هذا التشبيه الموت الذي يصيب الهوية العربية بعد انتقال الطفلة إلى المدينة الباردة، تنجح كرمي باختيارها لكلمة "magically" في تضمين أجواء سحرية خيالية يصبح من خلالها الموت بياتًا شتويًا، ويصبح بمقدور القارئ أن يترقب نهاية تعيد تلك الهوية المجمدة إلى الحياة فتنهض كما نهضت سنو وايت كأن لم يمسسها سوء.

إلا أن الرحلة من الموت إلى عودة الحياة – والتي يخوضها القارئ مع الراوية في هذا الجزء من النص – رحلة محفوفة بالمخاطر؛ إذ يصبح الإقتراب من الآخر مرادفًا للإغتراب عن الذات ويوشك التوحد مع الآخر أن يفضي إلى فناء تام للذات.

تنجح كرمي في رسم صور متعددة للصراع الذي تعانيه الطفلة في سبيل الإمساك بهوية عربية إسلامية لم تكن بعد قد استوت على عودها[59]، و تبدع في رسم صورة الطفلة المسلمة المحبة للكنيسة بسلامها وشموعها، تغمض عينيها وتقرأ الفاتحة في سرها بينما يغني كل من حولهاHail Mary السلام على مريم[60]، وتتفوق الطفلة المسلمة و صديقتها اليهودية ليزلي بيننسون في مادة الدين المسيحي وتحصلان على أعلى درجة في مادة الكتاب المقدس. تتوطد الصداقة بين غادة وليزلي وتشعر غادة في بيت صديقتها اليهودية بالمودة والمرح البريء، ويصور النص ليزلي وغيرها من اليهود صديقات غادة أو أصدقاء أخيها زياد بصورة إيجابية، ويعرج النص على تقبل الأسر من الطرفين لتلك العلاقات مما يضحد القول بحتمية الصراع، و يحصره في إطار إحتلال الأرض وتشريد أصحابها.

و يستمر الاقتراب من الآخر في النص و ترتمي الطفلة في أحضان الثقافة الإنجليزية فتطرب لسماع الموسيقى الكلاسيكية، و تستمتع بالفن التشكيلي، و تلتهم الروايات الإنجليزية، وتضحك من القلب، وهي تستمع إلى البرنامج الإذاعي الكوميدي The Goon Show.

ويستمر التوحد مع الآخر في النص لدرجة تبني تحيزات الآخر المهينة للذات: تصل غادة في فترة المراهقة إلى ازدراء كل ما هو عربي:

لم أكن أرغب في الاختلاط بغير الإنجليز، و أخذت أقلدهم في كل شيء لدرجة أنني كتبت مقالاً قصيراً أسميته "العقل العربي" امتلأ بالأفكار والتعبيرات الكولونيالية، جاء فيه: "العربي بطبيعته كريم ومضياف، و لكنه أهوج و شديد التهور[61].

لكن المجتمع الإنجليزي لا يبادل الصغيرة حبًا بحب، ولا يعترف بها كابنة شرعية رغم إنجليزيتها الشديدة. تحكي كرمي أنها اشتركت في مسابقة للإلقاء ووصلت للدور النهائي حيث انحصرت المنافسة بينها وبين فتاة إنجليزية تدعى كاثرين ويليت. تتألق كرمي في الأداء إلا أنها تخسر، بينما يبرر الحكم قراره قائلاً: "في الحقيقة أن البنت السمراء كانت أفضل و لكني لم أكن لأمنح جائزة الإلقاء بالإنجليزية لفتاة ليست إنجليزية"[62].

و يشهد الفصل الثاني مفارقة مؤسفة، فكلما ازداد رفض المجتمع لغادة الطفلة والشابة، كلما ازدادت هي تمسكاً به وتحللاً من هويتها العربية الإسلامية، و تظل هذه الهوية في مرقدها لا تتحرك قط إلا عند تأميم قناة السويس ومع خطب جمال عبد الناصر المفعمة بالحماسة و الكرامة والقومية العربية[63]، ثم هناك حدث آخر قبل هذا التاريخ، تشعر من خلاله كرمي أن هويتها العربية الإسلامية ما زالت تنبض بالحياة: ففي رحلتها لباريس تنجذب الصغيرة ذات الستة عشر عاماً لإمام مسجد في الحي العربي الفقير في قلب العاصمة الفرنسية الجميلة:"تسمرت مكاني، و شعرت أن شيئاً ما يربطني بهذا الرجل كما لو كنت مثله من الجزائر. وبدت إنجليزيتي المصقولة بعناية و كأنها هشة، وزاد من ضعفها تلك المواقف المفاجئة"[64].

إلا أن هذه المواقف لم تتعد كونها لحظات عابرة تتجاوزها كرمي لتستمر في تبني التحيزات الغربية ضد كل ما هو عربي أو مسلم، و تشتد رغبتها المحمومة في الفناء في الآخر عن طريق القضاء على كل مقومات الذات العربية المسلمة: "كانت المحرمات الخاصة بالجنس والمأكل والمشرب التي

تعلمتها منذ الصغر، جزء مما كنت أراه "حربًا على الجسد"، و كان هؤلاء الذين يجتنبوا هذه المحرمات في نظري مجرد حمقى محدودي الرؤية"[65].

يصل هذا الرفض للذات والتحيز للآخر إلى ذروته بالزواج من شاب إنجليزي دون الشعور نحوه بالحب، كان الدافع وراء هذا الزواج هو الانتماء إلى أسرة إنجليزية، وحسم صراع الهوية إلى الأبد: "بعيداً عن انجذابي لوسامته، لم يكن شعوري نحوه هو الحب، وإنما الإحتياج الشديد لأن يحبني هو وأن يشعرني بالأمان"[66]، و توازي كرمي بين ضياع الذات وضياع الوطن بإشارتها الدالة إلى تاريخ زواجها الذي تصادف أن يكون الخامس عشر من مايو أي نفس تاريخ ضياع فلسطين في عام 1948[67].

و هكذا وبعد أن تذوب الراوية تمامًا في الآخر، و بعد أن يطمئن القارئ المتحيز ضدها إلى انتقالها إلى صفه، تحدث الصحوة التي تبعث الحياة في الذات المحتضرة، وتكون المفارقة أن ميلاد الذات يأتي من الهزيمة لا من النصر؛ ففي الخامس من يونيو 1967 تشعر كرمي بصدمة التحيز[68]، و تبدأ رحلتها الشاقة في البحث عن الوطن الضائع، و يصبح البحث عن فاطمة – و هو عنوان الفصل الثالث والأخير من الكتاب – هو المعادل الموضوعي للبحث عن الذات/الوطن.

يتقبل القارئ رحلة البحث عن الذات والوطن الفلسطينيين لأنها مشروع الفتاة الإنجليزية "جاردة" Garda - كما كان ينطق إسمها كثير من الإنجليز-، ينحي القارئ تحيزاته جانبًا ويتبنى في تحفظ تحيزات الطبيبة الإنجليزية التي تأخذه معها إلى "إسرائيل" فإذا به يرى فلسطين.

تعود جاردة/غادة كرمي إلى فلسطين بعد خمسين عاماً من الغياب لتصطدم– هي وقارئ سيرتها– بمرارة الاحتلال وقسوة تبديل معالم الوطن، فيتحول أسلوب الكتابة عند غادة كرمي إلى مذكرات تدونها على مدار أربعة عشر يوماً، يتعرف فيها القارئ على أماكن، وأسماء، وأشياء قد ورد ذكرها في الجزء الأول من الكتاب، و تستمر الرحلة الحزينة من يافا إلى حيفا إلى طولكرم – ومروراً بحطين حيث انتصر صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين– حتى تصل الكاتبة إلى ذروة الألم في اليوم الرابع عشر بزيارتها لقطمون ورؤيتها للمنزل القديم.

و تستمر دعوة كرمي للحوار والتواصل وفهم الآخر حتى نهاية النص، تتخلل الرحلة/المذكرات لقاءات عديدة تضيء للقارئ مساحات أخرى من المشهد تمكنه من رؤية تفاصيل كثيرة. و من هنا تأتي قصة سميرة جميل الفتاة العربية الشقراء ذات المظهر الأوروبي والتي تعيش في حيفا وتتحدث العبرية بطلاقة، و تنجح بأعجوبة في الحصول على شقة في الحي الإسرائيلي الراقي بالكرمل. تحكي سميرة المولودة لأم يهودية من بولندا كيف أنها سافرت مع أمها إلى بولندا لزيارة Auschwitz آوستشفيتز حيث أبيدت أسرتها بالكامل، وكيف أن أمها قالت لها ولإخوتها في ذلك اليوم بانفعال شديد: "لو كان هناك درس مستفاد مما حدث فهو أن الإنسان يجب أن يتعلم ألا يذيق الآخرين مرارة ما حدث له"[69]، و لكن كرمي لا تورد قصة سميرة لتوصيل هذه الرسالة أو لتجعل القارئ يتحيز ضد الصهيونية فحسب، وإنما تطمح إلى أن تصل به إلى التحيز للإنسان أياً كانت خلفيته، وذلك بأن تجعله يتعاطف مع أسرة سميرة التي أبيدت في بولندا، وتسرد سميرة قصة لقائها بامرأة أردنية في لندن، وكيف أن الأخيرة تعجبت من مقدرة سميرة على العيش وسط الإسرائيليين، ثم قالت لها: "هؤلاء الناس يجعلونني أشعر بالغثيان! ليتهم جميعًا أبيدوا في المحرقة!" هنا تقول سميرة:"شعرت أنها تتحدث عن أمي ووددت لو أخبرتها عن أسرتي ولكنني لم أستطع. فكيف لهذه المرأة الكريهة التي ترتدي الذهب في كل مكان من جسمها أن تفهم"[70].

تتبنى كرمي من خلال هذا اللقاء – و كما يتضح في تعقيبها عليه – رؤية تعترف بوجود التحيز لكنها تدعو لتجاوزه، وهي رؤية إسلامية إلا أن كرمي لا تسميها بذلك، يقول الله تعالى في كتابه الكريم: "يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولايجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا. اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون"[71](المائدة، 8)

تستطيع غادة كرمي العربية/الإنجليزية بما لديها من تجربة ثرية أن ترى الآخر و تتواصل معه و تعترف بمعاناته، وهكذا يصبح العدل هو أحد أدواتها لمقاومة التحيز، و يشهد تعليقها على قصة سميرة على تلك الرؤية الناضجة: "امتلأت عينا سميرة بالدموع. كل ماستطعت أن أفعله هو أن أمد يدي في صمت لأمسك يدها. وتمنيت وقتها لو أن كل ما حدث لم يحدث: أقصد ما حدث لهم هناك وما فعلوه بنا هنا"[72].

تصطحب كرمي القارئ في رحلتها عبر القرى الفلسطينية الفقيرة والمدن الإسرائيلية الحديثة بشوارعها الواسعة ومراكزها التجارية المبهرة، تتوقف في الطريق عند بعض المحطات لتسمح للقارئ أن يتأمل المشهد وقد تعمقت خريطته المعرفية وازدادت تركيبًا[73].

يتذكر القارئ – وهو يشاهد "تحضر" إسرائيل، و "تخلف" العرب – تفاصيل الجزء الأول من هذه السيرة الكاشفة، فيستحضر الإرهاب الصهيوني، والخروج الفلسطيني، و يصبح في مقدوره أن "يعدِّل من نموذجه من كونه نموذج اقتصادي مادي بسيط اختزالي إلى نموذج حضاري إنساني مركب يحاول أن يصل إلى الواقع في كل جوانبه"[74].

يشترك القارئ مع كرمي في البحث عن فاطمة وفي التنقيب داخل "إسرائيل" عن الوجود الفلسطيني تحت الحروف العبرية والإنجليزية الطاغية، تزور كرمي طولكرم بلدة والدها ويشاركها القارئ وجبة غذاء مع أحد أبناء عمومتها، تحاول كرمي خلالها أن تتجنب النظر إلى الجنود الإسرائيليين فوق سطح المنزل المقابل وهم يمشون بخطوات واسعة ويحملون على ظهورهم البنادق وأجهزة الإرسال والإستقبال (الووكي توكي)، كما يشهد القارئ بصحبتها أيضًا أحد الجنازات التي يودع فيها أهل القرية شهداء الانتفاضة، بل ويشترك معها في البحث عن فاطمة داخل السوق المزدحم في المدينة القديمة: "وفي لحظة جنون وجدت نفسي أبحث عن فاطمة في هؤلاء البائعات، أخذت أحملق في وجوههن وأتحرق شوقاً لرؤيتها ثانية، و كأن ملامحها لم تتغير بفعل الزمن"[75].

تنزل كرمي خلال الرحلة ضيفة على شابة إسرائيلية "متحضرة"، وبينما تجلس معها ومع زوجها في جو أوروبي راق، تحكي الإسرائيلية أن والدها قد جاء إلى إسرائيل مهاجرًا من بولندا وانضم إلى الأرجون في الأربعينات، وفي تلك اللحظة تتذكر كرمي أن عصابة الأرجون هي التي قامت بتفجير فندق كنج ديفيد القريب من منزل كرمي في قطمون، و أن تلك السيدة "المتحضرة" الجالسة أمامها هي "إبنة الإرهابي الذي كان من الممكن أن يقتل أو يشوه أحد أفراد أسرتي أو أحد أصدقائي"[76] إلا أن أقصى ما تفعله إبنته الآن هو قولها "أنا لا أتفق مع آراء والدي السياسية"[77].

وهكذا تدور حلقة السرد دورة كاملة، و نعود مع غادة كرمي إلى البداية، و نقف في شرفة منزلها في قطمون في عام 1998 بعد أن تستأذن في ذلك سكان المنزل الإسرائيليين. إلا أن غادة كرمي لا تقف في الشرفة هذه المرة بمفردها وإنما يقف معها آلاف القراء من كل مكان ممن قرأوا هذه السيرة الذاتية الرائعة، وسافروا مع الكاتبة في رحلة عبر المكان والزمان اتسعت فيها رؤيتهم, وأصبحوا بحق قادرين على مقاومة التحيز البغيض، وعلى رؤية الحقيقة من شرفة منزل قديم في بلد اسمه فلسطين.

الهوامش:

1. د.غادة كرمي طبيبة فلسطينية، وهي أيضًا أكاديمية وناشطة مقيمة في بريطانيا وزميلة مشاركة في المعهد الملكي للشؤون الدولية في لندن، وقد صدر لها "البحث عن فاطمة" عام 2002 عن دار نشر فيرسو.
2. فريال جبوري غزول: "أشكال مقاومة التحيز في العالم الثالث"، إشكالية التحيز:رؤية معرفية و دعوة للاجتهاد. تحرير عبد الوهاب المسيري، الجزء الأول. (واشنطن:المعهد العالمي للفكر الإسلامي 1996) ص:315.
3. يبدو هذا الشبه واضحاً في تعامله مع زوجته. تحكي كرمي أن أحد وسائل الترويح بالنسبة لأبيها كانت الاستماع لحكايات أمها عن الجيران، إلا أنه كان ينصت إليها بينما يتظاهر بالاستغراق في القراءة، فإذا توقفت الأم للحظة عن الحكي إذا به يسألها: "وماذا حدث بعد ذلك؟؟"(33). ويبدو هذا التناقض في موقف الأب أيضاً في موقفه من الطعام الذي تتفنن زوجته في إعداده فيأكل منه في نهم إلا إنه لا يتوقف عن الشكوى منه(53).
4. راجع:
Ghada Karmi. In Search of Fatima: A Palestinian Story.(London :Verso, 2002)13.
5. راجع:
Estelle C. Jelinek. The Tradition of Women's Autobiography from Antiquity to The Present. (Boston: Twayne Publishers, 1986) 172.
6. راجع:
Phillip Lejeune, le Pacte autobiographique (Paris: Seuil, 1975)
مقتبس من: صبري حافظ:"رشق الذات لا كتابتها:تحولات الاستراتيجيات النصية في السيرة الذاتية" ألف: مجلة البلاغة المقارنة 22 (2002)، ص:18.
7. صبري حافظ، ص:8.
8. المرجع السابق، نفس الصفحة.
9. راجع:
James Goodwin. Autobiography:The Self made Text. (New York :Maxwell Macmillan International:1993):19
10. راجع:
Julia Swindells, ed. The Uses of Autobiography.(London: Taylor and Fancis,1995), 7.
11. المرجع السابق، نفس الصفحة.
12. راجع: إدوارد سعيد:
Edward W. Said. Culture and imperialism. (London ; Chatto & Windus , 1993)
13. راجع مقال سليمان إبراهيم العسكري: المقال الافتتاحي لمجلة العربي عدد شهر كانون ثاني2005.
14. راجع: مازن النجار: صورة الإسلام في الغرب والرؤية المعرفية الإمبريالية، موقع د. عبد الوهاب المسيري:www.elmissiri.com
15. عبد الوهاب المسيري: العالم من منظور غربي، (القاهرة: دار الهلال، كتاب الهلال: فبراير 2001) ص: 167.
16. المرجع السابق، ص: 278.
17. راجع مفهوم الخطاب النقيض والكتابة العكسية "writing back" في:
Bill Aschcroft, et.al. The Empire Writes Back: Theory and Practice in Post-colonial Literatures (London:Routledge,1989).
18. Karmi ، ص:107.
19. Karmi ، ص: 96,93,92.
20. Karmi ، ص:90.
21. عبد الوهاب المسيري و سوسن حسين: موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية: رؤية نقدية. (القاهرة: مركو الدراسات والسياسية والإستراتيجية بالأهرام، 1975) ص: 177.
22. المرجع السابق، نفس الصفحة.
23. راجع الصفحة الاستهلالية (Prologue) لرواية Beloved (محبوبة):
Toni Morrison. Beloved. 1987. New York: Signet, 1991.
24. جميع الاقتباسات من النص قامت بترجمتها كاتبة هذه السطور.
25. Karmi ، ص: 86.
26. Karmi ، ص: 89.
27. عبد الوهاب المسيري و سوسن حسين، ص: 408.
28. المرجع السابق، نفس الصفحة.
29. Karmi، ص: 89.
30. Karmi، ص:95.

31. فريال غزول، ص: 334.
32. Karmi، ص:92.
33. Karmi، ص: 93.
34. Karmi، ص: 96.
35. Karmi، ص: 98.
36. Karmi، ص: 102.
37. Karmi ، ص:107.
38. عبد الوهاب المسيري و سوسن حسين، ص: 413.
39. Karmi ، ص: 58.
40. Karmi ، ص: 58.
41. Karmi ، ص: 65.
42. Karmi ، ص: 69.
43. Karmi ، ص: 70.
44. صبري حافظ:"رشق الذات لا كتابتها:تحولات الاستراتيجيات النصية في السيرة الذاتية"، ألف: مجلة البلاغة المقارنة 22 (2002)، ص: 18.
45. Karmi ، ص: 63.
46. قدري حفني، تجسيد الوهم، ص: 190.
47. Karmi، ص: 73.
48. Karmi، ص: 64.
49. Karmi، ص: 63.
50. Karmi ، ص: 73.
51. Karmi ، ص: 62.
52. Karmi ، نفس الصفحة.
53. Karmi ، ص: 66.
54. Karmi ، ص: 69.
55. Karmi ، ص:70.
56. Karmi ، ص: 78.
57. Karmi ،نفس الصفحة.
58. Karmi ، ص: 174.
59. تختلف غادة في ذلك عن أختها سهام التي لم تعان صراع الهويات بنفس القدر من الحدة نظراً لنضجها النسبي وقت الرحيل إلى إنجلترا. وقد سمح ذلك لسهام بالحفاظ على هويتها العربية الإسلامية بالرغم من تقبلها للثقافة الإنجليزية واقترابها الشديد من الآخر المختلف في الهوية.
60. Karmi ، ص: 192.
61. Karmi ، ص: 227.
62. Karmi ، ص: 264.
63. Karmi ، ص: 272.
64. Karmi ، ص: 266.
65. Karmi ، ص: 305.
66. Karmi ، ص: 358.
67. Karmi ، ص: 305.
68. يتطابق هذا مع ما تسميه رضوى عاشور في قراءتها لرحلة إدوارد سعيد "الوعي في سياق الهزيمة"، وتقتبس رضوى عاشور من كتاب The Politics of Dispossession لسعيد قوله "أنه حتى عام 1967لم يكن مسيسًا وإن هزيمة العرب في تلك السنة كانت نقطة تحول في حياته، ويضيف أنه للمرة الأولى منذ وصوله إلى الولايات المتحدة والإقامة فيها كطالب ثم أستاذ جامعي وجد عواطفه تحمله إلى العالم العربي عمومًا وإلى فلسطين تحديداً"
راجع: رضوى عاشور، "الصوت:فرانز فانون، إقبال أحمد، إدوارد سعيد" ألف: مجلة البلاغة المقارنة 25 (2005)، ص:80. راجع أيضًا:
Edward W. Said. The Politics of Dispossession: The Struggle for Palestinian Self-determination 1969-1994 (London :Vintage, 1995)

69. Karmi ، ص: 341.
70. Karmi ، ص: 432.

71. "لا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا": أي لا تحملنكم كراهية قوم على أن لا تعدلوا.
72. Karmi، ص: 432.
73. راجع المسيري: العالم من منظور غربي.
74. المرجع السابق، ص: 23.
75. Karmi ، ص: 438.
76. Karmi ، ص: 441.
77. Karmi ، نفس الصفحة.